لحية صدام حسين ولسان المثقف أو المبدع (تذكيـــر)

محمد المدلاوي المنبهي*

■ وأنا أشاهد على الشاشة يوم 14 كانون الاول (ديسمبر) 2003 يدي الطبيب العسكري الأمريكي الأصلع القُحف، المقزتين، وهما تعبثان بلحية صدام حسين ـ بعد أن التحى مكرها لا بطل ـ وبشعر رأسه الأشعث الأغبر، ثم بفكّيه وأضراسه، كما يفعل البرغاز وهو يتفحّص ثنايا وأضراس دابّة معروضة للبيع، أو كما كان يفعل «لاتفونديو» و مزارعو حقول القطن الأمريكيون وهم يتفحصون أضراس العبيد المعروضين للبيع على متن باخرة راسية في أحد شواطئ خليج فلوريدا وقد قدمتْ للتوّ من جزيرة سان ـ لوي السينغالية؛ وأنا أشاهد عيني صدام الحاضر ـ الغائب شاردتين في ذهول شرود عيني من نسيَ التاريخَ أو أنسي ذكرَه، بعد أن لبث في الجحر كالجُرذ مالبث حسب الرواية الأمريكية الرسمية، كما لو أن صدمة من كان صدّاما فأضحى مصدوما قد أتلفت مساحة ذاكرة ذلك الصدّام المصدوم، وهو المغرم بالتاريخ، الناقش لاسمه ـ على غرار سلفه البعيد حمورابي في بابل ـ على كل لبنة من آجر قصوره البغدادية، والمدوِّنُ ترجمةَ حياته للأجيال في ثمانية عشر مجلدا، والمخلدُ لكريات دمه الحمراء بين دفتي وعلى صفحات مصحفه الدمويِّ المداد؛ وأنا أشاطر بني جلدتي من الآدميين عبر العالم مشاهدةَ أكبر بث وتوزيع لأبشع مشاهد الاهانة العمومية في التاريخ، قفَزَتْ الى ذاكرتي على التو مشاهدُ وأصداءٌ تغولَتْ عليّ واحتدمت. تذكرت لحيتي الثمانينية ـ التسعينية وسؤال أحد الأشياخ لي يوما بشأنها في بهو الجامعة عما اذا كانت موضة أم التزاما؛ وتذكرت ما ساهمت به بعد ذلك تلك اللحية الملتبسة الدلالة من تعقيد عابر ذات يوم من أيام شتاء 1991 بمطار «أورلي» بباريس في غمرة الاستعدادات لحرب الخليج الأممية الأولى مما سأعود اليه.

تذكرت، على الخصوص، ابنتي، وكان عمرها حينئذ ما دون الأربع سنوات، لما التحقتْ بي أسرتي في باريس في صائفة 1991، فأخذتْ تردّد ذات يوم، في جرأة طفولية أمام اندهاش مستقلّي عربة المترو بالعاصمة الفرنسية التي كانت سلطاتها «الميتيرانية» قد خرجت على التوّ من حرب العراق الأولى، قولها: «ازلمْ، ازلمْ، ياصدّام!؛ ازلمْ، ازلمْ ياصدّام!». تذكرت الحرج الذي سبّبه لي ذلك الانعكاسُ البريء للسان حال الشارع المغربي، بمسيراته المليونية، على لسان طفلة ما دون الرابعة، وأنا في عُقر دار من خاضوا الحرب ضد البطل، دار من تصدّتْ سلطاتُهم الادارية بحزم لمنع موجة طلبات تسجيل المواليد الجدد من الذكور في صفوف المهاجرين باسم «صدّام». تذكرت ذلك الحرج الذي انتابني أنا الذي خضعتُ قبل شهرين من تلك الواقعة لحوالي ساعة من الاستنطاق لدى المصالح الخاصة بمطار أورلي لمجرّد أنّ جواز سفري كان يُزيّنه ـ بمحض الصدفة ـ نسران في صفحتين متقابلتين: نسرُ التأشيرة العراقية بمناسبة سفري الى بغداد في احدى دورات مُلتقى المربد، ونسرُ التأشيرة الأمريكية بمناسبة اقامة بحث باحدى الجامعات الأمريكية حوالي سنة بعد زيارة بغداد، وهي الاقامة التي عايشت خلالها استعدادات الأمريكيين بقيادة بوش الأب للحرب العراقية الأولى، استعدادات بين ظهرانهم، وعلى طريقتهم، بما في تلك الطريقة من حملات اشهارية موسيقية في باحات الجامعات قصد حشد الانخراط في سلك الجندية من جهة، ومظاهر المناهضة المدنية للحرب في نفس الوقت من جهة ثانية على شكل مظاهرات ومحاضرات من قبيل المحاضرة المحشرية العملاقة للعالم نوام تشومسكي بمدينة «نيوهامشاير» التي ندد فيها بالسياسة الخارجية الأمريكية بصفة عامة، وبما في ذلك مما كان يعلقه ذلك الأستاذ الجامعي العراقي كل صباح على جدار الاعلانات بباحة جامعة أمهارست من مختارات الجذاذات الصحافية المنددة بالاستعدادات الحربية الأمريكية، وذلك في جو نظام للحريات يستعصي على الفهم بالنسبة لبعض الخطاطات الفكرية الاختزالية.

تذكرت بالخصوص، وعن طريق التداعي، بعض مشاهد وفصول تلك الرحلة البغدادية التي سبقت الاقامة العلمية بالعالم الجديد. كان الفضاء هو قصر المؤتمرات ببغداد، غير بعيد عن فندق الرشيد، حيث كانت تنزل فئة قُطرية من نوع كائنات قومية موسمية، كان يعرف الواحد منهم في بغداد حينئذ باسم «الأخ المربدي»؛ وهي تسمية تُجمَع على «مرابدة» (فزْدٌ في علمك، حفظك الله). وشاء اتفاق دافع الفضول، وسخرية الأقدار، أن أشاطر تلك الكائنات، لأول مرة في ذلك الموسم المربدي من نهاية الثمانينات، صفتَهم المربدية تلك، وعالمهم القومي الموسمي ذاك، بالرغم من أنه لم تكن لي أي صفة من صفات شروط الانتماء الطوطمي لذلك العالم الفاوسطي (faustien)؛ اذ لم يكن بيني وبين النقد ولا الابداع، اللذين يخولان لأصحابهما تلك الصفة، الا مسافات من الخير والاحسان، وحسن الجوار، وما يفرضه كل ذلك من آيات التيساع وكمشات التيقار وعدم التدخل في الشؤون الداخلية. كانت الكائنات المربدية في تلك الصبيحة البغدادية موزعة، كالعادة، ما بين المقصف لتناول ما تيسّر من المرطّبات من حين لآخر، وبين جنبات القبة الفارهة لقصر المؤتمرات حيث كان يغطس الواحد من تلك الكائنات في ثنايا أحضان أريكة أرجوانية اللون، مخمليّة القماش، تحت الوقع الصارخ والفجّ للأضواء الكاشفة، المنبعثة من كل صوب، وذلك لسماع طوابير محترفي مهنة الشعر وممتهنيه من المربديّن الذين يتجشؤون قوافيهم البيترودولارية، وتنتشر أشداقهم المطّاطية زبدَ ورذاذ نقائضهم المربدية، ليس ضدّ جرير، ولا ضد الفرزدق، ولا ضدّ نُمير، ولا ضد كعب، ولا ضد كلاب، ولا ضد أنف الناقة، ولكن ضد... «العدوّ الفارسي» الذي يجثم بكلكله على بلاد عربستان، وتمجيداً لبطل أمّ المعارك، معركة الفاو الحاسمة، التي كانت قد وضعت أوزارها على التو، والتي حصل للمربديين شرفُ الوقوف على أرض معركتها الكافكاوية، التي تجلّ بفظاعات منظرها عن الوصف. انه البطل صدام. ازلمْ، ازلمْ، ياصدّام!

وقد كان من بين من بايعتْ قوافيه وتفعيلاتُه غير العمودية، تحت سقف تلك القبة المشهودة، بطلُ القادسية والفاو، القائد صدّام، في ذلك العرس المربدي الذي لا يقلّ كافكاوية عن أرض معركة الفاو، شاعرٌ فذٌ كان قد قضى ما كان قد ولّى من عمره في مبايعة ألف غانية وغانية، ما بين «أنت لي»، و «طفولة نهد»، و«قالت لي السمراء». نذكره اليوم مع ذلك باحسان، وعن صدق نية لأن التاريخ يذكره وسيذكره، بعد أن لبّى نداء دار البقاء، باعتباره، مهما كان الأمر، آخر أمراء القوافي لهذا الجيل من أمّة ضحكت من تيهها الأمم، وآخر الشعراء الحقيقيين الذين لم يتخذوا من بردعة التشعرر والشعرورية ورقة يقطين لستر عورة البؤس الفكري والعقم الابداعي، والشعوذة والشرلطانية الثقافية.

واصل الشاعرُ المبايعُ الصدحَ بقوافي قصيدته التي كان عنوانها: «يا أيها الرجل!»؛ وما أدراك من هو الرجل! ومن عسى أن يكون الرجل، من غير صدّام؟ والحال أن الشاعر كان قد قضى العمر في مدح ألف غانية وغانية، فلما التقت الى التغزل بجنس الرجل عمد الى تعريف كلمة رجل بلام تعريف جنسية تستغرق جنسَ ما تدخُل عليه، فلم يقل: «يارجلُ» باستعمال النكرة المقصودة (فزد علما، حفظك الله!). وما أن وصل صدّاح الشاعر المتغزل مادحا، والمادح متغزلا، الى المسلك الذي يقول فيه «ويدخل صدّام! ويدخل صدّام!» حتى شُرعَ بابُ الوفود الرسمية للقاعة؛ فاذا به هو، هو عينه، أي صدّام نفسه، يدخل فعلا لحما ودما، وعظاما ولحما، ببذلته العسكرية الداكنة الخضرة! أمام انبهار المرابدة الأمجاد، الذين هبوا مصفقين تصفيقا مرعدا ومدويا لهذا الاتفاق البديع بين القافية الملحمية ووقع الحذاء العسكري. تقدم صدّام متحركا في قلب درع متحرك من الحرس الشداد الغلاظ، يتطاير الشرر من أعينهم، بينما يبتسم صدّام غير عابئ بوجودهم، وهو «يبحث لنفسه» تحت وابل التصفيقات عن مقعد في الصف الأمامي، الى جانب أبناء الشعب، بعيدا عن كل بروتوكول! كانت حرارة التصفيقات وحدتها تُنجّم قصيدَ الشاعر، تفعيلةً بعد تفعيلة. وما أن أنهى الشاعرُ أداءَ دوره ورقمه حتى ذُعرَ الناس لمّا قصف أسماعَهم صوتٌ هيستيري انطلق من احدى الجنبات الخلفية للقاعة مردّدا شعارات حماسية جنونية باللهجة العربية لبلاد الرافدين احتفاءً بالرجل الصدام الذي يقتحم صدى صداماته عقرَ الأكباد اذا لم يجد على الألسنة، أو حتى في القلوب، صدىً لملاحم أمجاده البابلية القادسية الفاوية. علمنا بعد خروجنا من القاعة بأن الزمن والحركة كانا قد تجمدا في برهة جليدية منذ ما يقرب من نصف ساعة قبل دخول صدّام وطيلة الفترة التي قضاها يستمع الى قريض المبايعين. وقد بقي، بحكم ذلك التجمد الجليدي، أحدُ رملائنا طيلة تلك المدة حبيس فضاء بيت الراحة! حيث صادفته الأقدار لمّا قُضي الأمرُ بأن يتجمّد كل كائن في النقطة والسمت والوضعية التي كانت من حظه تحت قبة السماء لما سامَت النجمُ البابلي قبةَ قصر المؤتمرات.

تذكرت ذلك الوجه المشرق، البشوش، الوضاح، الذي أحبه المبدعون والنقاد كما أحبوا نعمه ولو على شكل مجرد مأكولات ومرطبات بفنادق الرشيد، والمنصور، وميرامار، وشيراتون؛ وتذكرت صوره العملاقة التي كانت الواحدة منها تشغل صفحة واجهة خلفية كاملة لبعض عمارات بغداد. تذكرت كذلك أوجه المفارقة الدائمة ما بين مظاهر سياسة القرب كما عبر عنها اخراج وصلة قصر المؤتمرات، وواقع شعور الرهبة والخوف المستولي على الأكباد، من كركوك والموصل، والبصرة الى العاصمة بغداد. تذكرت من أوجه ذلك أن جواز السفر كانت تتمّ مصادرتُه من صاحبه بمجرد حلوله بمطار بغداد، وكان المرابدة يجدون ذلك عاديا؛ فمن يهُن يسهُل الهوانُ عليه. وتذكرت أني طلبت يوما من أحد المواطنين ممن توسمت فيهم عدم النقمة على المرابدة وعلى عربدتهم في فنادق الرشيد، وشيراتون وميرامار، والمنصور وعلى أرصفة شارع السعدون، أن يلتقط لي صورة على احدى قناطر دجلة قرب كورنيش أبي نواس فأجاب: «لا ياأخي؛ أنا آسف؛ خاف اتورّط». انه يخاف أن يتورط ان هو أخذ لي صورة في مكان عمومي! تذكرت كذلك جولتي في شوارع بغداد، وما يتولد خلالها من مشاعر البؤس والحصار، والرعب والارهاب. فأما الارهاب فكان يتجلّى بالنسبة لي في السلوك العدواني لأصحاب السيارات الذين لايسمحون للراجلين بقطع الطريق الذي يعتبر عُبُوره هناك في كل مرة مغامرة جديدة بالنفس. وأما الحصار، فمن حيث أنك نكرة مجردٌ من وثائق هويتك. وذلك التجريد ليس من حيث أن القانون العراقي لا يُلزم المتجول بحمل بطاقة الهوية فيُكتفى، عند اقتضاء المساءلة، اذا ما حدث حادث، بأخذ المعلومات المصرَّح بها، والتصديق بها بناء على تصريح ضمني بالشرف على صدقها يفترضه القانون، كما هو معمول به مثلا، وكما خبرته شخصيا في أمريكا لما ضللت السبيل الى منزلي في أول ليلة حللت بها في مدينة أمهارست الجامعية فأوصلتني دورية الأمن بعد أن طلبتْ مني التصريح بمعلومات عن هويتي ووضعيتي دون تطلب وثائق. ليس الأمر كذلك، ولكن لأن وثائقك هناك، في بغداد، تُعتقل في المطار، وتسلم لك جُذاذة مكانها يتعين عليك الاحتفاظ بها كلافتة المواليد الجدد ان أنت أردت ألا تصبح بين عشية وضحاها من بين مجهولي المصير ما دمت قد أصبحت مجهول الهوية.

أنت محاصر أيضا من حيث أنك محروم من العثور في كامل بغداد، التي تقاطعت فيها يوما سُبل حضارات المشرق والمغرب، والشمال والجنوب، على صحيفة أو مجلة أجنبية، وأنت من تعودت في مغرب ذلك الحين ـ الذي لم تكن ترى فيه، مع ذلك من قبل، سوى سجن كبير ـ على الاختيار بين عناوين صحافة الشرق بما فيها صحافة العراق، وصحافة الغرب من فرانكوفونية وأنجلوفونية.

وأنت محاصر أيضا من حيث ان الناس ينظرون شزْراً الى هيئتك السياحية الصفيقة، لأن سنين الحرب وأشياء أخرى، قد ميزت قسمات أوجههم المشوفة عن أوجه الكائنات المربدية التي كان نزْقُ التهافت يتطاير من أعينها الغبية. ولقد كان للحصار وجه آخر: في كل صباح، تقتحم عليك غُرفتَكَ من أسفل دفة الباب رزمةٌ من الصحف البغدادية، وغير البغدادية تقول كلها نفس الشيء عن الأخ الرئيس، وعن أم المعارك، وعن القادسية، وعن ملتقى المربد ونشاط المرابدة وتصريحاتهم الغبية، وهو نفس ما يعاود اقتحامُ غرفتك عليك ليلا من خلال نافذة الشاشة التي تشاهد من خلالها ليلا ما تكون قد عايشته حيّا بالنهار. ذات يوم من أيام ذلك الملتقى المربدي المعربد، يقوم أحد أبناء صدّام، ولعله عديّ، بصقر أحد الضباط صقراً قاضيا بعصا من العصي على رأسه فأرداه قتيلا في الحال، كما يقتل الثعبان؛ فبادر صدّام، على الفور، بـ«اعتقال» ابنه بنفسه في منزله، خوفا من أن يؤدي حُبّ الشعب لعشيرة الرئيس التكريتية كافة الى افلات القاتل من صرامة العقاب، وذلك اذا ما ترك لتتولى العدالة أمرَه ـ كما بيّنتْ ذلك الصحافةُ وشرحتْه، فافهم واستزدْ علما حفظك الله! وفي الغداة، قرأ المربديون في رزمة الصحف المسربة من تحت باب الغرفة كالعادة رسالةً مفتوحة من وزير العدل، حادّة اللهجة وهي موجهة الى رئيس الجمهورية وتقول من بين ما تقول في جرأة نادرة وبلغة رفاقية تضرب صفحا عن بروتوكولات الخطاب: «يا صدّام! اننا نخاف على ابنك من صرامة عدلك». وبعد يوم آخر أو يومين، قرأ المرابدة من جديد في الصحف بأن عشيرة الضابط المقتول بضربة عصا كالثعبان قد حطت رحالها وخيمت في فناء قصر الرئيس مطالبة اياه بما لا يقلّ عن ... الافراج فورا عن الابن القاتل، لأنها تعلم، كما بينت ذلك الصحف، بأنه قد فعل ما فعل تحت وطأة الغضب، وهو فتى في مقتبل الشباب، فافهم من جديد واستزد فهما! وفي اطار هذه المزايدات الغرائبية، تحرك بعض المرابدة الوافدين من مغرب الشمس، من الراسخين في برصة المربدة، وذلك قصد استصدار موقف استعطافي يوجّه للرئيس من طرف ما اعتبروه وفدا مغربيا يدّعون تمثيله، لولا أن البعض الآخر قد نبّههم الى أن الناس من الكائنات القومية الموسمية المغربية كانت قد حجّت الى المربد في ذلك الموسم فرادى وليس كوفد.

كان المرابدة يقضون سحابة يومهم ما بين قاعات المؤتمرات، حيث يتناوبون ما بين مقارعة العدو الفارسي بشظايا القوافي، وبين الملاكمة البُنيوية بين النقاد، وبين أبهاء فنادق سلسلة أوبروي Aurberway، وبين زيارة المقامات الرسمية والتسابق كل مرة لاستمالة العدسات الاعلامية قصد الادلاء ـ باسم هذا الطرف أو ذاك وبدون علمه ـ ببعض الانطباعات، وبكل ما من شأنه أن يخدم القضية المصيرية للأمة؛ ناهيك عن الاختلاء، هنا وهناك، للحديث عن المنَح المربدية، وعن أحوال عُملة الدولار في السوق السوداء، وذلك في عتمة المقاصف الفندقية، أو في مقاهي ومجعّات شارع السعدون أو في الرصافة أو الكرخ، قبل أن تُحلّ مواعدُ الموائد بالفنادق. هناك يتحول المرابدة ـ وأغلبهم من ذوي ثقافات رعوية ـ الى باشاوات، وافنديات، وبارونات، ينادون على النادلين ـ وأغلبهم مغاربة ـ بالضرب على الكفين مرتين؛ ويحتجّون في نخوة البارونات، على أي تهاون في الخدمة، مقارنين في ذلك الباب ـ كالعارفين بالأصول والتقاليد الجانتيلمانية ـ ما بين فنادق اليمن، ومصر، والعراق، و ... باريس. هناك يصبح الجميع، بقدرة قادر، من عشاق فالزيات شتراوس، وليليات شوبان، وصوناتات موزارت، بدليل أن المرابدة كانوا يحرصون على التصفيق بأكفهم الملطخة بالمرق، وأشداقهم منشغلة بالطحن والمضغ، وذلك كلما أنهى الكونسيرتو البئيس معزوفة من المعزوفات. واني لأذكر يوما كان قد استبدّ بي شعور الخزي من تفاهة سعينا جميعا في عبث ذلك الفضاء المربدي، خصوصا وأني لم أصحب معي من زاد المطالعة ما ينتشلني من ذلك العالم الأ«سيدّور» صغير عبري ـ اسباني كنت أطل من خلاله على ثقافة أخرى، أذكر أني ضبطت زميلنا الأستاذ محمد مفتاح وحيدا باحدى زوايا بهو فندق الرشيد، وهو مطرقٌ أطراقاته الصوفية المعهودة، فاستفتحته في رأيه في مظاهر التفاهة التي كانت تطبع سعينا في ذلك الفضاء، فاستقر رأينا معا على ما معناه أن أمام المرء من طينتنا المهنية تجاه ذلك القبيل من السوسيولوجيا المهنية خياران أحلاهما مرّ. ولقد اخترت، بعد تلك التجربة الخاصة، الخيار المرّ الثاني. فباستثناء حجر في حجم الفهر، كنت قد التقطتُه من على أديم الأرض في بابل الغبراء كتذكار عن هذه المدينة الأسطورية، والذي أثار بُعيد ذلك فُضولَ رجال المصالح الجمركية في مطار أورلي خلال ترانزيت رحلة العودة، خصوصا وأن انتفاضة الحجارة الأولى كانت قد انطلقت، لم تغرني أكوام الكتب المجانية المكومة أرضاً بـ«مركز الكتاب»، والتي تهافت عليها كثير من المربديين في لهفة مَن لا يصمد أمام أي شيء مما هو مجّاني، ولو كان خُفّ حُنين أو حزام حداءة؛ أولئك الذين تراهم يتحركون بين أكوام الكتب المكومة من مؤلفات القائد في الاشتراكية، وفي الدفاع، وفي الاقتصاد، وفي القومية، وفي الأسرة، وفي التربية، وفي الفن، وفي اللغة، وفي الأدب، وأيديهم تجمع من غنائم الكتب المجانية ما تجمع، وأرجلهم تدوس ما لم تجمعه أيديهم، كما يتحرك ممتهنو «التمييخ» من منتجعي قمامة الدار البيضاء بين تضاريس تلك المزبلة، يحركُهم نهمُ جمعِ أكبر ما يمكن من كل ما يُعرض مجانا.

والآن؛ والآن، وقد «غلبتْ الروم، وهم من بعد غلبهم سيغلبون»، وهي آية كنت قد استهللت بها مقالا مطولا بمناسبة الهجوم على أمريكا في عقر دارها وعصب حضارتها، مركز التجارة العالمي، وأشرتُ حينئذ الى أن للآية قراءتين بمعنيين تاريخيين مختلفين، حسب امكانيات البناء للمعلوم أو المجهول (غلبتْ... سيُغلَبون؛ أو غُلبتْ... سيَغلِبون)، والآن وقد استحال الصدّام الى مصدوم، واستحال الأسَد الصائل الى قطّ ذهول تائه النظرات رسّخه الاخراج الهوليودي في قطيّته؛ والآن، وذلك «الرجل» لم يعد من كان ينادى عليه بـ«يا أيها الرجل» ويتغزّل به من أفنى العمرَ في مدح النساء؛ والآن وقد هبّ سدنةُ سجلات النسب الشريف الى تبرئة آل بوش من اهانة سبط من أسباط الرسول، بأن قاموا الآن ـ والآن فقط، بعد أن تأكدوا من أن صدّام لن يعود كما يعود المهدي من سردابه ـ بفضح تزوير هذا المغامر العاثر الحظ لشجرة الأنساب برفعها الى آل البيت، مذكرين بأن النسّابين كانوا دائما من النصّابين الذين تكون شهاداتهم دائما لصالح الغالب المنتصر ما دام له البأس والغلب، وبأنهم متى أخفق المغامر نسبوه الى الخارجين أو الى الخوارج أو المتنبئة الأفاكين؛ والآن، وقد «خرج صدّام» من الجُحر كالجُرذ، وهو مطلوب أمام العدالة، لا بهيبة بينوشي، ولا بوقار ميلوسيفيتش، ولكن بمهانة يوغورطة؛ الآن، وقد استلّ منقار النسر الأمريكي كبدَ النسر العراقي من على صفحتي جواز سفري الذي كان قد سبب لي متاعب في مطار أورلي بباريس بسبب مشهد نسريه المتقابلين، النسر الأشوري والنسر الانكلوساكسوني؛ الآن وشعار حقوق الانسان الذي كان قد روّجه جيمي كارتر كمحدد فعلي أو مزعوم للسياسة الأمريكية قد آل الى ما آل اليه مع مشهد التمثيل أمام العالمين برئيس دولة سابق هو أسير حرب؛ والآن والقانون الدولي لِما بعد الحرب الباردة قد استحال الى رهان قوة بين عشيرة آل بوش وعشيرة آل صدّام، ذلك الرهان الذي امتجزت في أطواره ضرورات المصلحة والقوة برمزيات الدين والقيم، حيث كتب صدّام «الله اكبر» على رقعة العلم العراقي، الاشتراكي الملة والبعثي القماش، وحرص البوشان، من سَلَف ومن خلف، على تناول وليمة الديك الرومي أو ببي (turkey) لـ«عيد الشّكر» المسيحي الأمريكي (thanksgiving holiday) على أبواب مكة المكرمة، أثناء الاعداد للحرب الأولى بالنسبة للأب جورج، وفي قلب بغداد على اثر انتهاء الحرب الثانية بالنسبة للنجل جورج دبليو؛ ذلك الرهان الجهنمي الذي كان قد بدأ قبل غزو الكويت بكثير، اذا ما تذكر المرابدة والناس أجمعون قصة قطع غيار ذلك الدفع العملاق التي كانت قد دشنتْ بها المصالح الانكليزية الخاصةُ الوجهَ الأقدم لقصة «أسلحة الدمار الشامل»، وذلك قبل غزو الكويت، وقبل تطور الصنائع الأمريكية في أفغانستان الى رجال دولة الطالبان، ثم الى قاعدة عالمية؛ تلك القصة الجهنمية التي تراوحت وتطورت أوجهها ما بين «الرؤوس النووية»، وغبار «الانتراكس» الخبيث، والغازات السامة، والتي على أساس البحث عنها وتدميرها عبأ «جورج والكر بوش» أو «جورج الثاني، قلب الأسد» رأيه العام الداخلي والرأي العام الدولي لتبرير دخول الروم الى بلاد نبوخذ نصر، قبل أن يُنهي حملته الجنكيزخانية النظيفة بالاقتصار على تقديم رأس صدّام الأشعث الأغبر للعالمين خارجا من الجحر كدليل بديل عن ما لم يثبتْ وُجودَه «هانس بليكس» لما كان على رأس فريق الخبراء الأمميين، وقبل أن ينصب «جورج الثاني» نفسه، كأي قائد عربي، وصياً على الديموقراطية في بلاد حمورابي. لقد أصبحت المسألة مسألة رسالة حضارية بعد أن لم يعد أحدٌ يسائله عن قصة أسلحة الدمار الشامل، ولا عن نية صدّام في انتاجها، بما أن كوريا الشمالية قد أثبتت، باللكْم والتعنيف في تنبيه غفلة الغافلين، وليس بالاشارة و الغمز، بأن ما يؤرّق آل بوش ليس هو أسلحة الدمار، وهم الذين رسَخوا في المعاملات النفطية قبل أن يترجموا تلك المعاملات الى لغة السياسة، ويترجموا لغة السياسة الى تعابيرها الحربية البليغة.

فلا غرو اذا خرج بوش للحرب في حملته ضد محور الشر باحثا عن آثار أسلحة الدمار، ثم عاد بصيد يتمثل في رأس بارون دولة بترولية كهدية عيد ميلاد المسيح، فقد جمع سلفُه كريستوف كولومب المال من المولين، وجهّز الرجال على أساس أن يعبّد طريق البحر المؤمنة للتجارة العالمية نحو الهند عن طريق اتجاه الغرب، فعاد بعد أشهر وقد فتح مخازن خيرات أرض عالم جديد أمام التاج الرومي، وسنّ سُنّة عيد الشكر Thanksgiving المتمثل في مأدبة الديك الرومي، الذي وجد أسرابه في استقباله بأرض أمريكا، قبل أن يبدأ في نشر رسالة الديموقراطية في صفوف قبائل الهنود الحمر؛

الآن، وقد أفضى الرهان الى ما أفضى اليه، وأصبحت معاملة جزار بغداد من طرف دولة بطولة حقوق الانسان تطرح أمام العالم حالة من حالات حقوق الانسان في الكرامة الشخصية والجماعية لم يشهد لها التاريخ مثيلا من حيث التشهير والتمثيل، ومن حيث استعراض سادية الدولة من خلال ذلك العنف والارهاب الرمزيين اللذين مورسا يوم 14 كانون الاول (ديسمبر) 2003 أمام أنظار العالمين من خلال ذلك العبث المرضي الباتولوجي برأس ديكتاتور كان يمارس في الخفاء نفس الأساليب فيمدحه المرابدة في العلن، نتساءل في النهاية ماذا فعل الله بهذه الفصيلة من جهابذة النقد والابداع والقافية؟ وأين هم اليوم مما يجري ويدور؟ أما أحدهم، فقد خرق الصمت بعد أن أخذت الأحوال تسوء، ولكن قبل أن يُبرَم الأمرُ، وتُحسمَ المصائرُ، ويشطّب من «سجل الأشراف» على اسم من ادعى بأنه «خلف صلاح الدين»، فقال ذلك المربدي الأول من بين ما قال في مقال مطول: «أما أنا فلست بخالع صاحبي»، ثم لم نسمع له ولا لغيره بعد ذلك صدى في هذا الباب.

فها هي ذي العناصر المأساوية الواقعية للتراجيديا، لكن أين هو الابداع؟ ابداع المرابدة، والابداع أضعف الايمان؛ الابداع، وليس الشعوذة. هكذا يتأكد بأن التراجيديا، كسلوك وانفعال تاريخيين رياضةٌ وبضاعة من هذه الديار؛ أما الابداع الدرامي، كخلق وابداع فموهبة من مواهب تلك الديار. وان لم تصدق، فسل «حنّا بعل» بعد معركة «زاما»، وسل «يوغرطة»، وسل «نبوخذ نصر»، و«عايدة»؛ ثم سائل من خلّدَ تراجيديات هؤلاء. سل اوبرا «فيردي» ومسرح «شكسبير»؛ وربما ستخلد هوليود غدا تراجيديا صدّام بطرقها الاختزالية الخاصة. أما المرابدة وابداعهم، و«بُنيويتهم»، وفلسفتهم المتخصصة في الأيديولوجية المعاصرة لهذا الجنس، أو في عقل ذلك الرهط، فيبدو أن تلك أمة قد خلت، عليها ما اكتسبت، ولاشيء قد كسبت.

* اكاديمي وكاتب من المغرب

توقعات أساسية لسنة 2007

د. لويس حبيقة*

■ بينما كان العالم أجمع ينمو بقوة في سنة 2006، كان لبنان يخسر نموه المتوقع والحقيقي بسبب السياسة والمصالح وسوء الاداء والحسابات الخاطئة. خسر لبنان خلال سنة 2006 ما بين 10 و12 نقطة من الناتج المحلي الاجمالي، بينما نما الاقتصاد العالمي بنسبة 5,1 % والدول الفقيرة والناشئة بنسبة 7 % والدول الصناعية بنسبة 3,1 % . من المتوقع أن يكون النمو متعثرا في لبنان في سنة 2007 اذا ما استمرت التشنجات الحالية المضرة وتواصل البطء في ترميم المنازل واصلاح البنية التحتية والتعويض عن الشركات التي تضررت في حرب تموز (يوليو). لا يمكن لمؤتمر باريس 3 أن ينجح في ظل الأوضاع الحالية، ومن الأفضل تأجيله حتى بداية العهد الجديد شرط تأمين أموال عربية لتسديد بعض متوجبات الدولة الضرورية. تتوقع المؤسسات الدولية أن ينمو الاقتصاد العالمي بنسبة 4,5 % (4,6 % في سنة 2008) والدول النامية والفقيرة بنسبة 6,4 % (6,1 % في 2008) والدول الصناعية بنسبة 2,4 % (2,8 % في 2008). هذا يعني ان لبنان يتراجع اقتصاديا في المعيارين النسبي والمطلق، وهو ما يجب أن تشدد عليه الهيئات الاقتصادية في نشاطها الاعلامي والاعلاني.

تبعا لدراسات البنك الدولي، من المتوقع أن يرتفع مجموع الانتاج العالمي من 35 ألف مليار دولار في سنة 2005 الى 72 ألف مليار دولار في سنة 2030. بدأ من سنة 2007، سيتوسع الدور الاقتصادي للصين والهند في الانتاج والاستهلاك. ستتوسع المدن أكثر فأكثر وبسرعة، مما يرفع من خطورة وربما مأساة أحزمة البؤس التي تتواجد حول كل المدن الكبيرة والمتوسطة. في سنة 2007، ستنمو أوروبا بنسب معتدلة بينما سيتراجع النمو الاقتصادي الأميركي بسبب هبوط أسواق العقارات. من المتوقع أن تنعكس هذه الاحتمالات المنطقية على أسعار النفط، فيرتفع اليورو ويسقط الدولار الى ما يقارب 1,4 أو يتعداه. تعاني الولايات المتحدة من عجز كبير في ميزان الحساب الجاري، بينما تحقق الصين فائضا بلغ في 2006 حوالي 200 مليار دولار (8 % من الناتج) وتحقق الدول الناشئة المصدرة للنفط فائضا قارب الـ500 مليار دولار (منها 280 مليار دولار لدول المنطقة مقارنة بـ30 مليار فقط في سنة 2002).

استفادت دول المنطقة العربية وغيرها كثيرا من ارتفاع أسعار النفط. بلغ فائض ميزان الحساب الجاري في 2006 في دول مجلس التعاون الخليجي حوالي 30 % من الناتج (بينها 52 % في الكويت و 32 % في السعودية و 20 % في الامارات). لم يقتصر الفائض على الدول العربية بل وصل الى ايران (10 % من ناتجها) وروسيا (13 % من الناتج). بسبب الاستهلاك المتزايد من قبل الصين والهند وقطاع النقل الدولي، تتوقع الوكالة الدولية للطاقة أن يرتفع الطلب على النفط في 2007 الى 85,9 مليون برميل في اليوم من 84,5 هذه السنة. تتوقع الوكالة أن يرتفع الطلب الى 99 مليون برميل في اليوم في سنة 2015 والى 116 مليون برميل في سنة 2030. هنالك مجموعة توقعات لسنة 2007 تشير الى أن معدل سعر برميل النفط سيكون في حدود 63,8 دولار، مما يعني أن العصر الذهبي للدول النفطية سيستمر. ربما يكون هذا أيضا سعرا وسطا، أي لا تعترض عليه الدول الصناعية ويفرح الدول المصدرة للسلعة. من ناحية العرض النفطي، تشير الأرقام الى أن ثلثي الاحتياطي المعروف يقع في دول المنطقة مما يزيد من ثقل مجموعة «الأوبك» في السوق العالمية. تنتج «أوبك» الآن حوالي 40 % من الانتاج العالمي مع احتمال ارتفاع هذه النسبة الى 45 % في حوالي سنة 2015.

تبعا لما سبق، يمكن التأكيد أنه لا بديل واقعي عن النفط اليوم وانه متوافر للجميع أي عكس ما تشير اليه بعض «الدراسات» المسيسة وغير الجدية. أما الدور الكبير الذي ستلعبه الدول العربية النفطية في السوق العالمي، فهو ايجابي ومهم لكنه يعرضها في نفس الوقت الى الدفاع عن مصالحها بقوة في وجه الطمع الخارجي الغربي والشرقي. لا شك أن سعر النفط سيبقى مرتفعا، الا اذا تم اكتشاف مصادر جديدة في مواقع جديدة بحيث تخف قوة الأوبك في السوق. من واجب كل المجتمعات أن تقنن في استعمال الطاقة، ليس فقط بسبب الثقل المالي وتجنب ارتفاع الأسعار وانما أيضا بسبب المخاطر البيئية. لا بد للعالم أجمع من أن يتنبه للخطر البيئي الصادر عن الاستهلاك النفطي لدواعي الانتاج والنمو. لم توقع الولايات المتحدة على اتفاقية «كيوتو» لأنها في رأيها لن تطبق على 80 % من سكان العالم، وهذا يشمل الهند والصين والبرازيل. ها هو تقرير الاقتصادي البريطاني «ستيرن» يشير الى الخطر البيئي وينبه منه ومن مساوئه على حياة الانسان ومستقبل البشر. يقول «ستيرن» انه اذا لم يتحرك العالم سريعا سيرتفع مستوى التلوث، فيشكل تكلفة اضافية على المنتجين تصل سنويا الى حدود 5 % من الناتج المحلي الاجمالي. المطلوب التعاون لتنظيف البيئة والتخفيف من مساوئ تغير المناخ الذي يقلق العالم.

بدءا من 2007 سيتوسع دور الدول النامية في الاقتصاد العالمي. هذا اذا توصلت جولة الدوحة للمفاوضات التجارية الى نتيجة ايجابية ترتكز على فتح أسواق الدول الغنية أمام الصادرات الزراعية الآتية من الدول الفقيرة. توقفت المفاوضات في تموز (يوليو) الماضي ولم تستطع الاقلاع من جديد بسبب النزاعات السياسية الدولية بين أوروبا واميركا، كما بين مجموعتي الدول الغنية والفقيرة. سيتوسع الدور الاقتصادي للدول الفقيرة بسبب عاملين مهمين مترابطين أي الانتاجية وانتقال المعلومات والتكنولوجيا. من الممكن أن تزداد الانتاجية الاقتصادية مع فتح الأسواق واتساعها ومع السهولة المتزايدة لانتقال العلوم والمعلومات عبر الحدود بفضل الأنترنت وانخفاض تكلفة النقل والاتصالات.

ستكون سنة 2007 حاسمة جدا للبنان اذ ستتقرر خلالها مصير الرئاستين الأولى والثالثة، وربما الثانية أيضا اذا جرت انتخابات مبكرة. لا يمكن حل النزاع الحالي في لبنان الا عبر مجموعة حلول متوازية ومتزامنة تقضي بالتغيير في المسؤوليات مجتمعة في أسرع وقت ممكن. لا بد من النظر بجدية الى ضحايا الكباش السياسي وهم القطاعات ال